



الدلالة السياقية في تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير

د. المثنى عبد الفتاح محمود
قسم الثقافة الإسلامية - كلية التربية
جامعة جازان



الدلالة السياقية في تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير

د. المشي عبد الفتاح محمود

قسم الثقافة الإسلامية – كلية التربية

جامعة جازان

ملخص البحث:

يتناول البحث موضوع الدلالة السياقية في تفسير القرآن العظيم، وقد بين البحث مفهوم السياق عند الحافظ ابن كثير، من خلال التطبيق المنهجي العلمي في التفسير، وهو ما تابعت فيه المعاني عبر الألفاظ القرآنية، من غير فصل أو قطع، لتحقيق غاية موضوعية. وقد كان للسياق مجموعة من الدلالات في التفسير وهي: الدلالة الترجيحية المباشرة، والدلالة السياقية الترجيحية الضمنية، والدلالة السياقية في رد أهل الأفهام، والدلالة البيانية اللغوية، والاستدلال السياقي، وأظهر البحث قدرة الحافظ ابن كثير على التعامل لاقيق مع السياق القرآني، وأهمية السياق في النظر في المعاني المتابعة، ودوره في ترجيح المعاني بعضها على بعضها الآخر، وهذا الترجيح ما أن يكون مباشراً، أو ضمناً، معتمد على السياق واللاحق معاً، والسباق وحده، واللاحق وحده. وكان لابن كثير بصماته الواضحة في إنصاف المخالف، وبيان وجهة نظره من المعاني السياقية، ولم ينهج نهج القطع والبت في الآراء المحتملة، وقد رد بعض الآراء التي قال بها أصحابها معتمدين في ذلك السياق، وبين رحمه الله وهمراً ولئك الذين ظنوا لسياق لصالحهم، وقد كثف كذلك لدور السياقي في المسائل المنهجية التي يجب أن تكون حاضرة عند النظر في الآيات القرآنية. وهو بحث يسلط الضوء على ركن من أركان التفسير، في تفسير أراد صاحبه أن يؤصل لمسائل التفسير من جميع جوانبها، تسأل سببانه وتعالى في نهاية البحث أن يبرز لنا حسن التأمل، وعظيم التعلم، لما يحبه ويرضاه سبحانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الكلمات المفتاحية: الدلالة على البحث:

(التفسير، السياق، دلالة السياق، منهج ابن كثير)



المقدمة

نحمده سبحانه على نعمائه ومرضاته، وعلى جميل أسمائه وصفاته، ونصلي ونسلم على من ساق الهدى لهذه الأمة، بكثير الرحمة وعظيم الإحسان والنعمة، وبعد، فإن الوقوف مع كتب التفسير التي عُنيت بالجانب التأصيلي الأثري، لهو من جمال العلم، وكمال الفهم، وإن التتابع على معاني الخير في ثوب ألفاظها، لهو من تحقيق الحق في وحدة المقصد والغاية، وإن الحياة مع الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في تفسيره، لهي من كثير الاستنباطات في كثير من المسائل، وإن التدقيق في أبعاد أقواله، لهو من التحري في تحقيق الدقائق، هذا، وقد وقفت على الآيات التي كان لابن كثير فيها من وقفات العلم، ودلالة المعرفة ما يحتاج معها المرء إلى إثارة الإعجاب بعد أن كان غلباً وظهار مكنون النفس بعد أن كان باطناً، وهي لعمر الحق ترسم لباغي الخير منهجاً وتزج عن ناظريه خطأً ممنهجاً، كل هذا في عبارة وجيزة، فيها من الاحتراز والتدقيق ما لا يستطيع المرء إلا أن يجيزه، وهذه الدراسة أخذت من تفسير ابن كثير لمحة من لمحاته الكثيرة، ودلالة من دلالات علمه الغزيرة، وهي الدلالة السياقية في تفسير القرآن العظيم، يقدم هذا البحث دراسة حول الدلالة السياقية في تفسير القرآن العظيم، وقد عني أن يكون متجرداً للتوصيف أولاً، وللتحليل ثانياً، وللخروج بنتائج موجزة حول رؤية ابن كثير للسياق ثالثاً، فالذي يعينني أولاً وأخيراً هو مدى حضور الدلالة السياقية في تفسير القرآن العظيم، ضمن ما يراه ابن كثير نفسه مناسباً لتفسيره ومنهجه الذي ارتضاه، فكل مفسر قد ركز على مسائل من التفسير واعتنى بها دون أخرى، وغلب عليه اتجاهٌ ما سار عليه وفق منهجه الذي ارتضاه، فهل كانت الدلالة السياقية حاضرة أو لا؟ هو ما يعيننا فحسب، ولذلك فإن البحث قد تجرد لهذه المسألة دون أن يخوض في مسائل العلم والتفسير الأخرى، لتحقيق مقصد أراده الباحث وسعى إليه.

وأخذ الباحث على نفسه أن تكون الدراسة مجردة عن أي هوى، لتبعد عن النهن أي فهم على العقل التوى، ولتتصف بصفات المنهجية العلمية، وتكشف الغطاء عن رؤية ابن كثير للدلالة السياقية، وقد خلّصت إلى مجموعة من النتائج التي أرجو أن تكون مرضية، عند كل قارئ وقبل ذلك عند رب البرية، سأتي على ذكرها في خاتمة البحث تفصيلاً، وسأذكرها هنا إجمالاً وتحسيناً، فقد جاء البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول في تعريف السياق وأنواعه، وفيه ثلاثة مطالب وهي: تعريف السياق ومفهوم السياق عند الحافظ ابن كثير، وأنواع السياق.

المبحث الثاني: الدلالات السياقية في تفسير القرآن العظيم، وفيه خمسة مطالب وهي: الدلالة السياقية الترجيحية المباشرة، والدلالة الترجيحية السياقية الضمنية، والدلالة السياقية في رد أوهام الأفهام، والدلالة اللغوية والبيانبة، والاستدلال السياقي ثم خاتمة البحث التي ذكرت فيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث بشكل موجز، والله أسأل أن يعيننا على تمام المقصود، إنه ولي ذلك ونعم المعبود والله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

المبحث الأول

تعريف السياق وأنواعه

وفي هذا المبحث تناولت تعريف السياق من حيث اللغة والاصطلاح. وقد أصلت لمفهوم السياق من خلال المنهج العلمي الذي اتبعه الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره، وبعد ذلك ذكرت أنواع السياق إجمالاً، لتكون كالتوضيح لماسيأتي نكره في ثانياً البحث.

المطلب الأول: تعريف السياق

يعتمد التعريف الاصطلاحي المفهوم اللغوي ويتكئ عليه، ولذا كان لزاماً أن نعطي إلماحةً حول المفهوم اللغوي للسياق وبعد ذلك التعريف الاصطلاحي.

السياق لغة:

يقول الجوهري (ت ٢٩٣هـ): "ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي: بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية"^(١)، ويقول الأزهر (ت ٣٧٠هـ): "تساوقت الإبل تساوقةً إذا تتابعت، وكذلك تفاودت فهي متقاودة ومتساوقة"^(٢)، ويقول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): "وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقاة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده"^(٣)، ويقول صاحب اللسان (ت ٧١١هـ): "ساق الإبل يسوقها سَوَاقاً وسِيقاً، وهوسائق وسَوَاقٌ.. وسَوَاقٌ يسوق بهن، أي: حادٍ يحدو الإبل فهو يسوقهن بحدائهن، وسواق الإبل يقدمها، ومنه: "رويدك سوقك بالقوارير"^(٤).

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة و صحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ٩٩٠هـ، ط ٤، ج ٥ ص ١٨٥.

(٢) الأزهر، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ٢٠١١م، ج ٩ ص ١٨٥.

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، أسس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، بيروت - لبنان، دار المعرف، (ط)، (د.ت)، ص ٢٢٥.

(٤) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، الرياض - المملكة العربية السعودية، بيت الأوفكار الدولية للإشتر والتوزيع، ط ١، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، كتاب الأدب باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم الحديث: (٦١٤٩)، وهذا نصه: أن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على بعض نسائه ومعهن أم سلمة، ف قال: "ويحك يا أم سلمة! أروني سوقك بالقوارير"، ومسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الرياض - المملكة العربية السعودية، بيت

والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً. وساق إليها الصداق والمهر سباقاً وأساقه. وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما.

والسياق: المهر قيل للمهر: سوق، لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً، لأنها كانت الغالب إلى أموالهم. وضع السَّوق موضع المهر، وإن لم يكن إبلاً وغنماً والسياق: نزع الروح. كأن الروح تُساق لتخرج من البدن، والسوق سميت به لأن التجارة تجلب إليها وتُساق المبيعات نحوها^(١).

جاء في كتاب نظرية السياق القرآني: "إن السياق في الحس اللغوي وفي دلالاته اللغوية بمجموع المعاني التي تدل عليها تقلبيات هذه الكلمة، يدل على انتظام متوالٍ في الحركة لبلوغ غاية محددة. وقد تنبه ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) لما يحمله هذا الأصل من معنى فنبه عليه بقوله: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدُّ الشيء"^(٢).

فالسباق في اللغة يدل على تتابع منتظم في الحركة توصلاً إلى غاية محددة دون أن يكون هناك انقطاع أو انفصال، هذا ما تفهمه مجموع النصوص اللغوية الواردة على هذا الجذر"^(٣).

السياق اصطلاحاً:

دل المفهوم اللغوي لمادة "سيق" إذن على تتابع وتواصل دون انقطاع أو فصل للوصول إلى مقصد محدد، وعليه فيكون تعريف السياق هو: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال"^(٤). وسأتي على ذكر أمثلة من تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى تزيد من بيان هذا التعريف لتكون تأصيلاً له، وتثبيتاً لأركانه.

الأفكار الأولية لا شتر والتوزيع، ط ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م، كتاب الفضائل، باب: رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء، وأمر السواق مطليهن بالرفق بهن، رقم الحديث: (٢٣٢٣).

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر، (ط)، (د.ت)، ج ١٠، ص ١٦٦-١٦٩، بتصرف.

(٢) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، بيروت - لبنان، دار الفكر، ط ٢، ١٩٩٨ م، ص ٤٩٨.

(٣) محمود، المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني "دراسة تأصيلية دلالية نقدية"، دار وائل لا شتر، عمان - الأردن، ط ١، ٢٠٠٨ م، ص ١٤.

(٤) محمود، نظرية السياق القرآني، ص ١٦.

المطلب الثاني

مفهوم السياق عند الحافظ ابن كثير

سبق وبيننا أن السياق هو "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال"، والقارئ لتفسير القرآن العظيم. لا يجد تعريفاً نظرياً محدداً لمفهوم السياق، ولا غروفي ذلك فهو كتاب عني بالجانب التطبيقي في تفسير كلام الله تعالى، وهذا لا يمنعنا بطبيعة الحال تلمس المقصود من السياق في رؤية ابن كثير من خلال تفسيره، ولذا كان من أولية القضايا وأولويتها الوقوف على معنى السياق، وهذا يقودنا إلى المنهج التحليلي الاستنباطي في تحليل عبارات ابن كثير، كي نستنبط منها مفهوم السياق.

تتابع المعاني السياقية

والمدقق في هذا التفسير يجد أنه لم يعن كثيراً صاحبه الوقوف على ظاهر اللفظ وإنما الذي كان يعنيه بشكل أساس هو المعنى المتتابع الذي يدل عليه السياق، وكان يرمق بنظره ويتلمس بحسه التفسيري الدقيق تتابع المعاني المسوقة لتحقيق مقصد موضوعي، وينبه على حقيقة المراد من الآية، وأنه ليس ما يظهر من اللفظ هو المقصود فحسب، بقدر ما هو مراد سياقياً.

عند تفسير الحافظ رحمه الله تعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْبَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] يقول: "ولهذا قال تعالى ممتناً على النسي: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْبَارِيَةِ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء، ﴿لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ تَذَكُّرًا﴾ [الحاقة: ١٢] علا الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار.. وقال قتادة (ت ١١٧هـ): أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة^(١)، والأول أظهر، ولهذا قال: ﴿وَعَبَّأْ أذنَّ وَعِيشَةً﴾ [الحاقة: ١٢]، أي: وتفهم هذه النعمة وتكرها أذن

(١) وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري كذلك، يُنظر: الطبري: أ بوجه فر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ٢٣ ص ٥٧٨.

واعية^(١١)، فلم يرتض ابن كثير قول قتادة، لأنه يؤول إلى كلام غير متتابع معنوياً وقد بين دلالة المعنى من لحاق السياق، بقوله: "ولهذا قال: ﴿وَعَمَّا أَذُنٌ وَعِيَةٌ﴾ فلو وقف رحمه الله على ظاهر اللفظ لتابع قتادة في قوله، ولكنه نظر إلى مقتضيات المعنى السياقي فقال به ولو دققنا النظر في كلام ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، فإنه يقرر أن هذه الآيات هي من تملك كلام السحرة، وليس كلاماً لأحد آخر، ويعتمد في ذلك على تتابع المعنى وتساقطها وفي ذلك يقول: "الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾"^(١٢)، فابن كثير رحمه الله تعالى يعتمد التتابع والتساقط بين المعاني، وهي المقصود الأعظم في التفسير، وعليه فنستطيع أن نقول: إن تتابع المعاني يدخل في الركن الركين والأصل القويم في منهجية ابن كثير في تعامله مع الآيات القرآنية، وسلوكه العلمي واضح في تطبيق هذه المنهجية، فهو لا يرضى أي قول من شأنه فصل أو قطع السياق عما قبله أو بعده، وسنقف مع مثالين يوضحان هذا المنهج.

رفض ابن كثير الفصل بين الآيات

عند قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨) وَقُتِرُوا وَفِرْعَوْنَ وَهَمِرُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ثَمُودُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاستَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيتَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ

(١١) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرآن شبي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طبعة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ج ٨ ص ٢١٠.

(١٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٥ ص ٣٠٥، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هاجم لمعترة ضة، واستدل على ذلك بأنه لم يرجع لها نظير في آيات نظائر هذه القصة، يُدْطَرِّبُ ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ٦ ص ١٥٤، ومما يرجح ما ذهب إليه الحافظ أ. مران، أن الأول: أمر منهجي وهو أن الجملة المعترة ضة لا يـُقال بوجودها إلا عند الضرورة، مما يمنع أن تكون من جنس الكلام المساقاة فيه، فحمل الكلام على مساقاة الذي سبق فيه أولى من جعله معترة ضة، والثاني: أن القصة الواحدة في القرآن تُذكر بتقديم وتأخير وإيجاز وإطناب وحذف وذكر في مواطن مختلفة، ونظائر متشابهة، فلا يعد هذا دليلاً على جعل هذه الآية جملة معترة ضة، والله أعلم بما ينزل.

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

يقول ابن كثير: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم عاد... ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود... ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾، وهو قارون الذي طغى وبغى وعصى... ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاءً وفاقاً بما كسبت أيديهم.

وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر^(١)، وهو أنه نكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، أي: من هؤلاء المذكورين وإنما نبهت على هذا، لأنه قد روي أن ابن جريج (ت ١٥٠هـ) قال: قال ابن عباس (ت ٦٨هـ) في قوله ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قال: قوم لوط، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ قال: قوم نوح، وهذا منقطع عن ابن عباس، فإن ابن جريج لم يدركه، ثم قد ذكر في هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء، وطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق^(٢).

فابن كثير يرفض أن يكون هناك فصل طويل بين معاني السياق، ونستنتج أن السياق عنده ما كان متقارباً بحيث يصلح أن يكون بعضه موضعاً لبعضه الآخر ومبيناً، وأمر آخر واضح في منهجه رحمه الله تعالى، وهو الرد على الرأي الآخر بما جاء في سياق السورة من إهلاك قوم نوح ولوط عليهما السلام، فالترجيح هنا قام على ركيزتين، الأولى: رفض القول الذي يستند على الفصل الطويل بين المعاني المتسقة، والثانية: الاستناد إلى سياق الآية، والأمران في منهجية الدلالة السياقية.

(١) اللف والنشر وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد إليه، القزويني، محمد بن سعد، ابن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٢٢٢. ويُنظر، التحريير والتحرير في تفسيره لهذه الآية، ابن عثور، التحرير والتحرير، ج ٢٠، ص ١٧٢.

(٢) وهو ما نهب إليه قتادة، ورجحه الطبري، يُنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٠، ص ٣٦.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٢٧٨-٢٧٩.

رفض ابن كثير قطع الآيات

جاء في التفسير عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دُودُنَا لِقَوْمِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوا اللَّهَ وَأَنْقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧) ﴿وَلَنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٨) ﴿وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ﴾ (٢٠) ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ (٢١) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِبُ اللَّهُ لِقَاءَ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ أَتَى عَلَى الْأَنْبَاءِ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ (٢٣) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٤].

يقول ابن كثير: "وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وهكذا نص على ذلك ابن جرير (ت ٥٣١٠هـ) أيضاً^(١)، والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه يحتج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ والله أعلم^(٢)، فقول قتادة يفضي إلى قطع السياق، وهذا ما لا يرتضيه الحافظ، وهو ما يثبت المنهجية السياقية المنضبطة على أساس التتابع القائم على وحدة المعنى.

إذا تبين لنا أن ابن كثير رحمه الله اعتنى بالتتابع المعنوي، والتلاحم السياقي ورفض الفصل أو القطع بين المعاني القرآنية، بقي علينا أن نثبت وجود مقصد للسياق، بحيث تتكامل أركان التعريف للسياق القرآني.

(١) يُنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٠، ص ٢٠-٢١.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٢٧٠.

دلالة السياق المقصدية عند ابن كثير

سبق وبيننا بأن السياق القرآني يأتي لتحقيق غاية موضوعية، وابن كثير لا تخفى عليه هذه الحقائق، وقد بين في تفسيره أن للسياق مقصداً، وهذا المقصد من شأنه أن يرجع رأياً على آخر، فالمقصدية السياقية في تفسير القرآن العظيم لها حظوتها ووجوبها ولها دلالتها الترجيحية، فعند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، يقول ابن كثير: "قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام، إلا آمن به قبل موته - أي: قبل موت عيسى عليه السلام - ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك" (١).

ويوضح ابن كثير رحمه الله تعالى مقصد ذكر آية في سياق ما، وذلك دليل على أن الدلالة السياقية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمقصد السورة، فعند قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] يقول ابن كثير: "وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية، والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك" (٢).

إذن ذُكرت الآية في هذا السياق لسبب مقصدي وهو الرد على المشركين فيما ابتدعوه من تحريم ما أحل الله، ولذلك لم يفسرها هنا واكتفى بالإشارة إلى تفسيرها في سورة البقرة، لأنه لا يرى أن تفسيرها هنا ضروري، بل الضروري التنبيه على مقصد السياق في ذكرها لا غير.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢ ص ٤٥٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٥٨٢.

فنستطيع أن نستنبط مما تقدم أن أركان السياق عند ابن كثير رحمه الله تعالى تنحصر في: تتابع المعاني، وتحقيق معنى مقصود، وعدم الفصل، وعدم القطع، وعليه نستطيع أن نقرر مؤصلين مفهوم السياق عند ابن كثير بأنه: ما تتابعت فيه المعاني عبر الألفاظ القرآنية، من غير فصل أو قطع، لتحقيق مقصد موضوعي.

المطلب الثالث

أنواع السياق

هناك ثلاثة أنواع رئيسة للسياق القرآني وهي:

- النوع الأول: سياق السورة، وهو السياق الذي يشتمل السورة كلها وهونوعان: سياق سورة ذات مقطع واحد، وسياق سورة متعددة المقاطع^(١).
- النوع الثاني: سياق المقطع، وهو السياق الذي يتحدث عن مسألة معينة مرتبطة بما قبل وما بعد، وهو حلقة مترابطة ضمن حلقات السورة الواحدة.
- النوع الثالث: سياق الآية، وهو السياق الذي يتحدث عن مسألة معينة في آية واحدة ويكون جزءاً من سياق المقطع، ومكملاً من مكملاته^(٢).

والمقصود من ذكر هذه الأنواع بيان أن ابن كثير يعتمد أحياناً سياق السورة في بيان التفسير أو ترجيح رأي على آخر، وأحياناً نجده ينظر في سياق المقطع، وأحياناً أخرى نجده مكتفياً بالترجيح من خلال سياق الآية وحده، وبالتالي فإن الذي يعيننا من هذا كله إثبات أن ابن كثير اعتمد هذه الأنواع من السياق، وجعلها ذات مدلول في التعاطي مع الآراء التفسيرية.

وهناك أنواع أخرى للسياق وهي فيما يتعلق بالترجيح الدلالي، وهي النوع الأول: ترجيح سياقي بسباق، النوع الثاني: ترجيح سياقي بلحاق، النوع الثالث: ترجيح سياقي بسباق ولحاق^(٣)، وسنبين إن شاء الله هذه الأنواع في المطلب الأول من المبحث الثاني وهو الدلالة السياقية الترجيحية، وكيف أن الحافظ رحمه الله كان يعتمد في ترجيحاته هذه الأنواع.

(١) يُدْ ظر: لشاطبي، إِبْرَاهِيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت - لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، (د.ط.)، (د.ت.)، ج ٣ ص ٤١٣.

(٢) ينظر تفصيل الأنواع ومناقشتها: محمود، نظرية السياق القرآني، ص ٧٨ - ١٠٠.

(٣) ينظر تفصيل الأنواع ومناقشتها: محمود، نظرية السياق القرآني، ص ١١٨ - ١١٩.

المبحث الثاني

الدلالات السياقية في تفسير القرآن العظيم

أثبتنا فيما تقدم مفهوم السياق عند الحافظ ابن كثير رحمه الله، وبيننا أنه اعتمد السياق في تفسيره، وفي هذا المبحث سنبين أهم الدلالات السياقية التي كانت حاضرة في التفسير، والتي تعطينا صورة واضحة عن جانب من جوانب شخصية الحافظ العلمية ومدى دقته في النظر في كتاب الله تعالى، للوصول إلى مراده من كلامه.

المطلب الأول: الدلالة السياقية الترجيحية المباشرة:

اعتمد ابن كثير رحمه الله تعالى السياق في الترجيح بين الأقوال التفسيرية ولم يقف رحمه الله تعالى على ظاهر اللفظ السياقي، بل تعداه إلى معانيه المقصودة فالرؤية السياقية واضحة تمام الوضوح في التفسير، ولذا سنرى من خلال الأمثلة طرق الترجيح السياقي بالسباق واللاحق وبهما معاً، وكيف أن الدلالة السياقية لها حضور قوي في التفسير، حتى غدت ركناً من أركانه، وأصلاً من أصول الترجيح وقواعده، وبالمثال يتضح المقال.

أنواع الدلالة الترجيحية

يعتمد ابن كثير الدلالة السياقية في الترجيح الدلالي، فهو يرجح أحياناً بالسباق واللاحق، وأحياناً بالسباق، وأحياناً أخرى باللاحق، وسأعرض لهذه الأنواع الثلاثة بأمثلة تبين المقصود:

١- الترجيح الدلالي بالسباق واللاحق

فمن الأمثلة التي تبين الترجيح الدلالي بالسباق واللاحق ما جاء في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قال ابن كثير: "اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْفِيتُمْ فَلَا تَزِلُّوْا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر (ت ١١٤هـ)، لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة

(ت ٤٣هـ) عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك (ت ١٠٢هـ) أيضاً^(١)، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي (ت ٢٠١هـ) عنه، وبه قال مجاهد (ت ١٠٤هـ)، وعمرو بن شعيب (ت ١١٨هـ)، ومحمد بن إسحاق (ت ١٥٠هـ)، وقتادة، والسدي (ت ٢٨هـ)، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢هـ)^(٢)؛ أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرّمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على منكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة^(٣).

فالترجيح هنا اعتمد السباق واللاحق، وإن كان اللاحق متباعداً وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] لكنه دليل على ترجيح ما ذهب إليه الحافظ، وهو كذلك يرمي إلى إعمال قاعدة استقلال كل سياق بما ذكر فيه، فهنا ذكر معنى الأشهر الحرم بأنها تلك المدة التي وضعت للمشركين وفي الآية الأخرى بيان الأشهر الحرم المعهودة.

وكذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] قال ابن كثير: "وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أحدها: أن المراد بذلك الكافر، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان (ت ١٤٠هـ)، والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام، وهذا اختيار ابن جرير، والثالث: أن المخاطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وبه يقول زيد بن أسلم (ت ٣٦هـ).

(١) يُنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤ ص ١٢٣.

(٢) يُنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤ ص ١٣٧.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ١١١.

وابنه، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد^(١).

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني: من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي، لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك^(٢).

أقول: ما ذهب إليه ابن كثير هو الراجح سياقياً، وإن كان رحمه الله تعالى يكتفي بالإجمال في كثير من مواطن الترجيح السياقي، وإذا أردنا تبين مراده فنقول: هناك ترجيح من حيث السباق وهو قوله تعالى: ﴿وَمَلَأَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٣١] وهو يقتضي دخول جميع الناس لدلالة ﴿كُلُّ﴾ على العموم، ولعدم ورود دليل يخص هذا العموم، وأما الترجيح من حيث الحاق وهو قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيرٍ﴾ [ق: ٢٤] إلى قوله: ﴿وَأَرْزَقْنَا الْجَنَّةَ لِمَنْ تَشَاءُ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣١]، فالآيات تتحدث عن الفريقين، ولم تخص الحديث عن فريق دون الآخر، وهو ما عناه ابن كثير رحمه الله بقوله: "والظاهر من السياق"، يقول ابن جزي الكلبي (ت ٧٩٢هـ): ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ خطاب للإنسان الذي يقتضيه قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، يريد أنه كان غافلاً عما لقي في الآخرة، وقيل: هو خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أي: كنت في غفلة من هذا القصص، وهذا في غاية الضعف، لأنه خروج عن سياق الكلام^(٣).

(١) يُنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٢ ص ٣٨٤.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٧ ص ٤١٠، وهو ما ذهب إليه ابن عطية، يُنظر: ابن عطية: أ بومحمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر لوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام ع بد الشافعي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ج ٥ ص ١٤٥، وأبو حيان، حتى قال: "وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله، وهو في كتاب ابن عطية"، وأصل القول موجود في تفسير الطبري كما سبق في الإشارة آنفاً، يُنظر: أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحیط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وأخرون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ج ٨ ص ١٢٥، وكذلك هو ما ذهب إليه أبو السعود، يُنظر: أبو السعود: محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج ٨ ص ١٣٠، وهو ما عليه جمهير المفسرين.

(٣) ابن جزي، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، التسهيل لعلم التنزيل، دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ أو طبعة، ج ٤ ص ٦٤.

٢ - الترجيح الدلالي بالسباق

ومن الترجيح السياقي بالسباق ما جاء في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء: ٦]، حيث قال: "وقال ابن وهب (ت ١٩٧هـ)؛ حدثني نافع بن أبي نعيم القارئ (ت ١٦٩هـ) قال: سألت يحيى بن سعيد الأنصاري (ت ٤٣هـ) وربيعه (ت ١٣٦هـ) عن قول الله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فقالوا ذلك في اليتيم، إن كان فقيراً أنفق عليه بقدر فقره ولم يكن للولي منه شيء، وهذا بعيد من السياق لأنه قال: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ يعني: من الأولياء ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: منهم ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالتي هي أحسن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] و[الإسراء: ٣٤] أي: لا تقربوه إلا مصلحين له، وإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف" (١).

فالدلالة السياقية هنا دلالة ترجيحية بالسباق، فما دام الحديث عن الأولياء في قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ فهو عنهم كذلك في قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولاداعي لجعل الأول في الأولياء، والثاني في اليتامى، لما ينشأ عنه من خلل في النظم، هذا في الدلالة السياقية في الآية الواحدة.

ويقول ابن كثير في بداية تفسير سورة الرحمن: "يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه؛ أنه أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ [الرحمن: ١-٤] قال الحسن (ت ١١٠هـ): يعني: النطق، وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعني الخير والشر، وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أدله تلاوته وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعهما من الحلق واللسان والشفيتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها" (٢).

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢ ص ٢١٨.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٧ ص ٤٨٩.

ومن الترجيح الدلالي بوساطة سباق الآية نفسها، ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ﴾ قال ابن كثير: "والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان ههنا التزويج لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنِيَتِكُمْ﴾ والله أعلم، والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ﴾ أي: تزوجن^(١).

٣ - الترجيح الدلالي باللاحق

من الترجيح الدلالي باللاحق وحده ما جاء في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَكْتَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿لَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠] حيث قال: "ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾" (٢)، والترجيح بوساطة اللاحق واضح حيث جعله مرجحاً لنفي أن يكون المراد آدم عليه السلام، إذ كان موحداً لربه سبحانه وتعالى ولم يكن من المشركين.

ويقول الحافظ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿[النبا: ٣١]﴾ قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً، وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار، الأظهر هاهنا قول ابن

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٦٢، يقول الشنقيطي: "وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ﴾، الإسلام خلاف الظاهر من سياق الآية، لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ الآية"، ينظر: الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج ١، ص ٢٣٣.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥٢٨، والسعدي ملامح لطيف في بيان هذا الوجه الذي ذهب إليه الحافظ حيث يقول: "وهذا انت قال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في أمر وحواء، ثم انت قل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيراً، السعدي: عبدأ لرحمن بننا صر بن السعدي، تفسير الكريمة لرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبدأ لرحمن بن علا اللوح، حق، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ٣١.

عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدِّيقْ﴾ [النبا: ٣٢] وهي البساتين من النخيل وغيرها^(١)، فهنا ترجيح بالآية اللاحقة، وهذا يدل على أن المقار هاهنا له دلالة محددة وهي التعمير ببساتين الجنة، ومن فاز بهذه الحقائق فقد نجا من عذاب الله تعالى، وهذا معنى قول ابن كثير رحمه الله: "والأظهر قول ابن عباس"^(٢).

وعند قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠]، يقول ابن كثير: "ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة... وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعدها: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا.

وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن، وقتادة، ومحمد بن إسحاق والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قسمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣)، وترجيح ابن كثير رحمه الله هنا في غاية الدقة، لأنه نظر إلى لحاق الآية فأعمله، مما يؤكد قيمة الترجيح السياقي في تفسير القرآن العظيم.

ونجده رحمه الله تعالى يذكر عدة أقوال، ثم يرجح أحدها على البقية بالحق، يقول: "وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] قال العوفي عن ابن عباس يقول: لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص، لما سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٣٠٨.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٣٠٨.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ١٩٧-١٩٨.

يقول الله: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝﴾ [الجن: ١].
 القرآن، هذا قول، وهو مروي عن الزبير بن العوام (ت ٣٦هـ) رضي الله عنه^(١).
 وقال ابن جرير... عن ابن عباس قال: قال الجن لقومهم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝﴾ قال: لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، قالوا: عجبوا من طواغية أصحابه له، قال: فقالوا لقومهم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝﴾ وهذا قول ثان، وهو مروي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) أيضاً.

وقال الحسن: لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا إله إلا الله" ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تلبد عليه جميعاً، وقال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝﴾ قال: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفنوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه، هذا قول ثالث، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقول ابن زيد، واختيار ابن جرير^(٢)، هو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ٢٠] أي: قال لهم الرسول - لما أذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته - ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝﴾^(٣)، والناظر في القولين الأولين يجد فيهما قبولاً لأول وهلة فإذا ما أُنعم النظر في لحاق السياق مالت نفسه إلى ترجيح الحافظ ومن سبقه من أهل العلم، وهذا يعيننا على التمهّل والتروي حين النظر في كتاب الله تعالى.

ويقول في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝﴾ [القيامة: ٥] قال سعيد عن ابن عباس: يعني: يَمْضِي قَدَمًا، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يعني: الأمل يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة، ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة، وقال مجاهد: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليمضي أمامه ركباً رأسه، وقال الحسن: لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً، إلا من عصمه الله، وروي عن عكرمة (ت ١٠٤هـ).

(١) يُنظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٣ ص ٦٦٦.

(٢) يُنظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٣ ص ٦٦٧.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢٤٤-٢٤٥.

وسعيد ابن جبير، والضحاك، والسدي، وغير واحد من السلف؛ هو الذي يجعل الذنوب ويسوف التوبة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب وكذا قال ابن زيد^(١)، وهذا هو الأظهر من المراد، ولهذا قال بعده ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٢)؟ أي: يقول: متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده كما قال تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ^(٤) [سبأ: ٢٩-٣٠]^(٥)، وهنا نجد أن ذكر الدليل جاء بعد الترجيح، وفيها من الدلالة على المنهجية التي قام عليها الحافظ، من خلال جمع الأقوال ثم الوقوف على أدقها.

فنحن نجد أن ابن كثير يرجح بهذه الأنواع الترجيحية، ترجيح بسباق ولحاق، وترجيح بسباق، وترجيح بلحاق، وهي أنواع تكشف لنا الترجيح السياقي المباشر، أي التصريح بأن هناك راجحاً ومرجوحاً.

المطلب الثاني

الدلالة الترجيحية السياقية الضمنية

والمقصود هنا أن ابن كثير رحمه الله تعالى لا يعتمد دلالة السياق للترجيح المباشر، وإنما في الترجيح الضمني، وهذا يدل على عمقه رحمه الله، واحترازه من الوقوع في القطع برأي دون آخر، وهو يدل على إدراك شفافٍ للمساحة الظنية التي يخضع لها السياق، وما يدور فيها من احتمال المعاني والأحكام، وأن الذهاب إلى وجهة دون أخرى في الترجيح، يحتاج إلى دليل واضح يبين منضبط بضوابط متعددة، فهو لا يميل إلى هذا الرأي أو ذاك إلا بعد تمحيص وتحليل، ثم لا يصرح برجاحة رأي على آخر إلا بعد تأمل وتأن وفي ذلك يكون الحافظ قد بين لنا منهجه الدقيق في التعامل مع الآراء الأخرى، فالفرق بين هذا المطلب والذي قبله، أن الحافظ رحمه الله يميل إلى رأي من الناحية السياقية لكنه في الوقت نفسه لا يسلك فيه مسلك الترجيح المباشر، ولذلك سميناه ترجيحاً ضمناً.

(١) يُنظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٤، ص ٥٣.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٢٧٦-٢٧٧.

فمن يدقق النظر في تفسير الحافظ ابن كثير، يستطيع تلمس منهج واضح، ذي معالم وافرة الضلال، ممتدة الأركان، وهو ما سلكه رحمه الله مع الآراء المخالفة، فهو منهج مرتبط ببعد فكري في تقبل الآراء الأخرى، وعدم التعنيف عليها أو الازدراء بها، ومخالفتها بذوق علمي رفيع، وأدب خلقي جم، ونستطيع أن نلخص أهم معالم الترجيح الضمني عند الحافظ فيما يلي:

١- الترجيح بطريق التقوية السياقية

فمن أساليب الترجيح الضمني عند الحافظ ابن كثير، أنه يرجح بطريق التقوية السياقية، وهو بذلك يلفت النظر إلى قوة السياق في بيان المعنى المراد فعند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ١﴾ [النحل: ٩]. يقول ابن كثير: "ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ١١﴾ [الحجر: ٤١]، قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله، وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: الإسلام، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي: تبيين الهدى والضلال، وكذا روى علي بن أبي طلحة، عنه، وكذا قال قتادة والضحاك.

وقول مجاهد هاهنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طريقاً تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي: حائز لمل زائغ عن الحق^(١).

فهو يرى أن رأي مجاهد اكتسب قوة سياقية غير موجودة في بقية الآراء، وفائدة التقوية السياقية، أن الآراء الأخرى يكون لها وجه في القبول، لكن هذا الرأي يتقوى عليها

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٥٦٠.

بالسياق، وبالتالي يمتاز عليها، وهذا يعني ترجيح ضمني اكتسب قوته من السياق وفلذته عدم رد الآراء الأخرى بالكلية.

٢ - لحاظ وجهة الرأي الآخر، مع عدم قبوله سياقياً

يرجح ابن كثير رحمه الله بالدلالة السياقية ويجعلها مقدمة، وإن كان المعنى الآخر له وجهته وقبوله، فعند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا حَقْبًا﴾ [الفرقان: ٢٢]. يقول: "﴿وَيَقُولُونَ حَجْرًا حَقْبًا﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم.. والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة. هذا قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، وعطية العوفي، وعطاء الخراساني (ت ١١٤هـ)، وخصيف (ت ١٤٠هـ)، وغير واحد، واختاره ابن جرير^(١).

وقد حكى ابن جرير، عن ابن جريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾، أي: يتعوذون من الملائكة، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: ﴿حَجْرًا حَقْبًا﴾^(٢). وهذا القول - وإن كان له مأخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق في الآية بعيد، لاسيما قد نص الجمهور على خلافه^(٣). وهنا نجد ابن كثير أقر بوجهة الرأي الآخر، وأنه من الناحية العقلية مقبول، لكن الضوابط العلمية السياقية تدفع قبول هذا الرأي في هذا السياق بالذات.

٣ - ترجيح رأي على آخر سياقياً، لا يعني بالضرورة رد الآخر

ونرى ابن كثير رحمه الله يظهر رأياً مقبولاً سياقياً ويرجحه على رأي صحيح آخر في ذاته لا يتوافق مع السياق، وبالتالي لا يرد الرأي الآخر، بل يقر صحته باعتبار عموم دلالة على المعنى، ثم يبين ما يراه أدق دلالة على معنى الآية، وعلى عادته يشفع ذلك بالشاهد النبوي وفي ذلك يقول: "ثم اختار ابن جرير قول عطاء؛ إنه نهى عن الإسراف في كل

(١) ينظر: الطبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٩ ص ٢٥٦.

(٢) ينظر: الطبري؛ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٩ ص ٢٥٦.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦ ص ١٠٢-١٠٣. وينظر: أبو الحسن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البخاري، مسند ابن الجعد، تحقيق: عامر أحمد مدحيدر، مؤسسة نادر، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ٢٣٦٥، رقم الحديث: (٢١٤٠).

شيء^(١)، ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ، وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، أن يكون عائداً على الأكل، أي: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ) تعليقاً: "كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة"^(٢) وهذا من هذا، والله أعلم^(٣).

فلم يرد ابن كثير الرأي الذي يدل على العموم وهو النهي عن الإسراف في كل شيء، بل أقر بصحته في ذاته، وصحة هذا الرأي لا تعني أبداً موافقته عليه في كونه مفسراً لهذه الآية بعينها، بل تعني وصفاً لهذا الرأي بأنه صحيح في ذاته ليس إلا وأن الراجح الأدق هنا هو ما ذهب إليه من تخصيص النهي عن الإسراف في الأكل، وأن دليل التخصيص السياق، وفي ذلك دلالة واضحة لمسلك ابن كثير في التعامل مع الآراء التي تكون في ذاتها صحيحة، وإن لم توفق في موافقة وفاق السياق.

٤ - توجيه الرأي الآخر سياقياً

لا يكتفي ابن كثير رحمه الله بترجيح رأي على آخر من خلال الدلالة السياقية بل إننا نجده يحرص أحياناً على توجيه الرأي الآخر سياقياً، فعند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، يقول ابن كثير: "ينهاهم شعيب عليه السلام، عن قطع الطريق الحسي

(١) يُنظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٢ ص ١٧٤.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، ج ٥ ص ٢١٨، وأخرجه ابن ماجه في سننه مو صولاً يُدَظر: ابن ماجه: أ بوعبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، دار الفكر، بيروت - لبنان، تحقيق: محمد قوادع بد الباقي، كتاب الإبل، باب ليس ما شئت ما أخذ طأك سرفاً ومخيلة، رقم الحديث: ٣٦٠٥، ج ٢ ص ١١٩٢، وقد حسنه الشيخ الألباني، يُدَظر: الخطيب التبريزي: محمد بن عبد الله، مشكاة المصابيح، المكتبة الإسلامية، بيروت - لبنان، ط ٥، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: محمدنا صرا لدين الألباني، ج ٢ ص ٤٩٤، رقم الحديث: ٤٣٨١.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣ ص ٣٥٠.

والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين.

وعن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهي الطرق. وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة^(١).

وما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله من خلال الترجيح السياقي فيه زيادة معنى على الرأي الثاني، فبين أن المقصود بالآية كونهم قطاع طرق، وفوق ذلك يصدون عن سبيل الله المؤمنين، فهم من جهة قطاع طرق وفيه بيان حالهم قبل مجيء الدعوة ثم أضافوا إلى ذلك الفعل القبيح فعلاً أقبح منه وهو صدهم عن سبيل الله تعالى. وهو الموافق للسياق، ولم يكتف بذلك بل بين أن ما ذكره أصحاب الرأي الثاني هو المراد من لحاق الآية.

ويقول في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ آلًا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]: قال بعضهم: أي لنسب ألا تكثر عائلتكم، قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي رحمهم الله. وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَہٗ﴾ أي: فقرأ ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨] وقال الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(٢)

وتقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة، إذا افتقر ولكن في هذا التفسير ههنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر، كذلك يخشى من تعداد السراي أيضاً والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ آلًا تَعُولُوا﴾ أي: لا تجوروا، يقال: عال في الحكم؛ إذا قسط وظلم وجار، وقال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

(١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، ج ٣ ص ٤٤٧.

(٢) البيت لأبي حنيفة بن الجلاح الأوسي، يذخر: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهضة الأرب في فنون الأدب، تحميق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ج ٨ ص ١٤٣.

بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل^{(٨١) (٩)}.

٥ - الجمع بين الأقوال أولى من إهمال بعضها

فَعِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨١].

وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم، وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك.. وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم^(٣) - وإن صح - لا ينافي قول عكرمة: أنه كان مالاً؛

(۲) ابن کثیر. تفسیر القرآن العظیم. ج ۲ ص ۲۱۲.

(٣) رواه الحافظ البزار في مسنده من حديث أبي ذر رضي الله عنه، -رفعه- قال: "إن الكنزا الذي ذكر الله في كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجب! لمن آمن بالله قدر لم نصب! وعجب! لمن ذكر النار لم ضحك! وعجب! لمن ذكر الموت لم غفل! لا إله إلا الله، محمد رسول الله". البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، مسند البزار، تحقيق: د. محمد فؤاد الزين، مؤسسه علوم القرآن، ومكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٩هـ، بيروت - لبنان، المدينة المنورة، المطبعة العربية السعودية، ج ٩ ص ٤٥٤، حديث رقم: (٤٠٦٥)، وقال الهيثمي: "رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله بن حصي، ولم أعرفه ما، وبقيّة رجاله ثقات"، الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ج ٦ ص ٤٢٥، حديث رقم: (١١١١).

لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم^(١)، فلم يسلك رحمه الله تعالى مسلك الترجيح برد بعض الأقوال، بل كان ترجيحه بالجمع بينها، وهو إعمال للقاعدة الأصولية: "إعمال الدليلين أولى من إهمال أحدهما"^(٢)، وهنا الجمع بين الأقوال التفسيرية أولى من إهمال بعضها.

٦ - الترجيح التفضيلي:

وهو مسلك يدل على دقة في التعامل مع الآراء المتقاربة سياقياً، فعند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧] يقول ابن كثير: "وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم، من صفة النبي صلى الله عليه وسلم وكتمانهم ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾" رواه ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقاله مجاهد وغير واحد^(٣).

ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذا الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٢٨] فذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرئيين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله^(٤).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٥ ص ١٨٥-١٨٦.

(٢) يقول الإسنوي: "وحاصل المسألة أنه إذا تعارض [دليلان]، فإنما ترجيح أحدهما على الآخر إذا لم يمكن العمل بكل واحد منهما، فإن أمكن ولو من وجه دون وجه، فلا يصار إلى الترجيح، لأن إعمال الدليلين أولى من إهمال أحدهما بالظن، لكون الأصل في الدليل هو الإعمال لا الإهمال". ينظر: الإسنوي، ج ١ ص ١٤٢٠ هـ - ٩٩٩ م، ج ٢ ص ٢٦٧، وهذا ما قرره الحافظ عملياً من خلال تطبيقه لهذه القواعد في الجمع بين الأقوال التفسيرية، وبذلك يتلمس القارئ الحس الأصولي لهذا الإمل.

(٣) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٨ ص ٣٥٢.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢ ص ٣٠٢.

فالدلالة السياقية هنا ليست ترجيحية بالمعنى الأصولي، وإنما فيها زيادة على ذلك وهي عدم إلغاء الرأي الآخر، وجعله محتملاً، وكما هو واضح فإن الترجيح اعتمد قرينة اللحاق وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ﴾ [السَّاء: ٣٨] والذي نستنتج هنا أن الدلالة السياقية عند ابن كثير ليست بالضرورة أن تكون ملغية للرأي الآخر، وإنما هي من باب الترجيح التفضيلي لرأي على رأي آخر.

ومما يزيد من بيان هذه المنهجية ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] حيث قال رحمه الله: "قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى تفسير ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أنه القادر على إقلمته ثم شرع يضعفه^(١).

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلاً من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذلكما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ يَوْمَذِ الْقَحْ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣] والله أعلم^(٢).

والمدقق في منهج ابن كثير في الاستعانة بالدلالة السياقية يتبين له أنه يعتمد فيها الاستدلال على دقائق الترجيحات، ويجعلها مفضلة لرأي على آخر، دون القطع بصحة رأي على آخر إلا إن دعت الحاجة إلى ذلك، وبهذا نستطيع فهم كلمات السلف في التفسير، بأنها ليست بالضرورة ترجيح رأي وإلغاء آخر، بقدر ما هي ترجيح تفضيلي^(٣).

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ١ ص ١٥٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ١٣٤، وهنا لا بد من بيان أمر وهو أن ابن كثير فضل الرأي الأول على الثاني بدليل السياق، واستأنس بأية الفرقان على ذلك، فلم تكن آية الفرقان هي الدليل، كما أنه بين أن القول الثاني يشبه ما جاء في آية الأنعام.

(٣) وهو ما دعاني منه اليوم، حيث إن بعض الباحثين لا يستريح بالهم، ولا تهدأ جوارحهم حتى يقولوا قولاً فصلاً في تفسير آية أو ترجيح وجه على آخر، ولا يتهم صنعوا ما صنع المتقدمون من العطاء المتمكنين، فسلوكوا مسلك التقريب الظني لا الترجيح القطعي، إذا لم يوجد مرجح قطعي.

المطلب الثالث

الدلالة السياقية في رد أوهام الأفهام

كان لابن كثير رحمه الله اجتهاده في رد بعض الأوهام التي تأتي من جهة فهمٍ قد يُظن أنه يؤيده السياق، وفي هذه الدلالة السياقية ما يكشف عن دور السياق في الرد على بعض أوهام الأفهام في هذا المقام، وهذه أمثلة تبين المقصود:

١- رد ما يتوهم أنه يوافق ظاهر السياق^(١)

لم تقف نظرة ابن كثير على ظاهر السياق، وإنما كان ينظر إلى عمق المعاني السياقية، وقد خالف الطبري فيما ذهب إليه من التزام ظاهر السياق بل ذهب إلى رأي آخر يؤيده معنى السياق لا ظاهره عند التدقيق.

فبعد أن نقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن ابن إسحاق رويات^(٢) في تفسير سماع كلام الله تعالى على أنه ليس سماع التوراة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ [البقرة: ٧٥] قال: "وقال

(١) الفرق بين ظاهراً لسياق و لسياق، أن ظاهراً لسياق يركز على الألفاظ ومعانيها المعجمية الإفرادية، بينما لسياق فيركز على المعاني المتتابعة في نص واحد، فهو ينظر إلى معنى اللفظ بعين ومعاني الألفاظ في السياق بالعين الأخرى، بحيث يرجح ضمن ما يوفق مع مجموع هذه المعاني لا بما يوفق مع معنى اللفظ وحده.

(٢) ونص الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن إسحاق: "قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولما سمعه من المؤمنين يؤسسه منهم: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، وليس قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يسمعون التوراة، كما هم قد سمعها، ولكن الذين سألوا موسى رؤية ربهم فآخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمد بن إسحاق: فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال: نعم، مرهم فليطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربهم، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهئهم، حتى عقلوا عنه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤهم حرف فريقتهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين كرههم الله: إنما قال كذا وكذا، فلما قال الله عز وجل لهم، فهما الذين عنى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢ ص ٣٤٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٢٠٧.

السدي: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: هي التوراة حرّفوها.

وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق^(١)، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى ابن عمران عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، أي: مبلغاً إليه، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢) قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه^(٣).

فالمقصود من السياق هنا سماع التوراة، وليس ما ذكره الطبري^(٤) رحمه الله تعالى والذي يعني أن منهج ابن كثير في التعامل مع الدلالة السياقية هو النظر في بعدها المعنوي دون الجمود على ظواهرها اللفظية.

(١) يُنظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢ ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣ ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) قول الطبري مبدئياً به بوضوح في أن المقصود عنده من السماع السماع الحقيقي: "وأول التأويلين اللذين ذكرت بالآية، وأشبهما بمادله عليه ظهرا لتلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذي حكاها ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: من أن الله تعالى ذكره إنما عني بذلك من سماع كلامه من بني إسرائيل، سماع موسى إياه منه، ثم حرف ذلك وبل، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه، وذلك أن الله جل ثناؤه إذ ما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عز وجل، استعظاماً من الله لما كانوا يأتون من البهتان، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإذ تأمّن الله تعالى ذكره عباده المؤمنين، قطع أطماعهم من إيمان بقايا سبلهم بما أتلهم به محمد من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم وإنما تخبرونهم - بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله عز وجل - عن غيب لم يشهدوه ولم يراينوه، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونهيه، ثم يدله ويحرفه ويحده، هؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا سبلهم، أحرى أن يجدوا ما أتيتهم به من الحق، وهم لا يسمعون من الله، وإنما يسمعون منكم - وأقرب إلى أن يحرفوا ما في كتبهم من صفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وبيلوه، وهم به عالمون، فيجحدوه ويكذبوا - من أوتاهم الذين يشاروا كلام الله من الله جل ثناؤه، ثم حرّفوه من بعد ما عقلوه وعلموه معتمدين التحريف.

ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنه عني بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يسمعون التوراة، لم يكن لذكر قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ معنى مفهوماً لأن ذلك قد سمعه المحرف منهم وغير المحرف، فخصوص المحرف منهم بأنه كان يسمع كلام الله - إن كان التأويل على ما قاله الذين نكروا قولهم - دون غيرهم ممن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى له، يُنظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢ ص.

ولا يعني هذا أن ابن كثير لا يعتمد الظاهر من السياق، بل إن الظاهر هو المعتمد وهو المقدم ما لم يمنع مانع من ذلك، فعند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارَعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٢٤] يقول ابن كثير: "قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة وهذا هو الظاهر من السياق"^(١). ثم ذكر رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما بأن المقصود بالقارعة السرية وفي رواية أخرى عنه كذلك أنها عذاب من السماء^(٢)، وعليه فالظاهر هنا هو الراجح وهو الأوفق سياقياً.

وإذا كان الظاهر من السياق هو الراجح المعتمد عند ابن كثير، فإننا نجده أحياناً يسلك فيه مسلك التفضيل والتقديم، مع تجويز إرادة المعاني الأخر، وهذا من احترازه الذي يدل على علمه وتقواه لله رب العالمين، وعدم تعصبه لرأيه، وعند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢] يقول: "وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة وغير واحد: مهلكاً، وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر أهلكا حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾ وادياً في جهنم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: واد في جهنم، من قيح ودم، وقال الحسن البصري: ﴿مَّوْبِقًا﴾ عداوة^(٣). والظاهر من السياق هاهنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيرهما إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كلوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير^(٤).

٢ - رد توهم أن السياق يدل على معنى دون آخر

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٤٦٢.

(٢) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٤٦٢.

(٣) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ١٨ ص ٤٦.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ١٧٠.

ويظهر لنا عمق النظرة عند ابن كثير، فهو يعمل نظره في السياق بسباقه ولحاظه وفي ذلك يقول: "قال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلُنَا﴾ [البقرة: ١١٨] قال: النصارى تقول، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهما! وفي ذلك نظر... وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب^(٢)، ثم بين رحمه الله الدليل السياقي على أن المقصودين هم مشركو العرب، فقال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨] قالوا: هم اليهود والنصارى^(٣).

وعلى عادة ابن كثير في تفسير القرآن بالقرآن يأتي بشاهد قرآني ليزيد البيان بلياً فقال: "ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وهي في مشركي العرب.

فالذي أراد تقريره الحافظ رحمه الله أنه ليس كل لفظ جاء في سياق معين منكر فيه أقواماً معينين مقصوداً بهم، وإنما الذي يحدد المقصود هو تدبر السياق من جميع حيثياته، وقد اتضح الأمر في هذه الآية بأن المقصود كفار العرب للقيد الزمني المنكر في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، فأفاد القيد أن الذين قبلهم هم أهل الكتاب فبطل أن يكونوا هم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإنما هم كفار العرب.

٣ - رد التوهم بأن السياق يرجح رأياً على رأي

معرفة دلالة السياق على معنى دون آخر تحتاج إلى دقة في النظر، ولستيعاب لمعاني الآيات، وقد تحلى ابن كثير بهذه الصفات، ولذلك نجده يرد أي رأي يستند صاحبه -توهماً

(١) يقول ابن جرير: "وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل: إن الله تعالى عنى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النصارى دون غيرهم، لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افتراءهم على وادعائهم له ولداً" ج ٢ ص ٥٥٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٣٩٩.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٣٩٩.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٣٩٩.

- إلى السياق وهو ليس كذلك، فعند قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨] يقول: "قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه، والأظهر أن الضمير عائذ على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل، واختاره ابن جرير^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّى الْمَالُ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿لَن نَّأْلُوا الْإِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِنَّا مَحَبُورَ﴾ [آل عمران: ٩٢]^(٢)، أقول: والذي يقوي هذا الرأي ويعزز به أن أقرب منكر في الآية هو الطعم، فهو الأولى بالترجيح، هذا من حيث السابق، أما من حيث اللاحق فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرُحْمَةِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩] فقد نكر في هذه الآية أن يطعم الطعام لوجه الله تعالى، ولما كان لوجه الله كان ناشئاً عن حب الله تعالى وهذا يدل على أن إعمال السياق يكثر وجوه المعاني.

٤ - رد أوهام الأفهام

وقد كان للحافظ لفتات لطيفة في باب رد أوهام الأفهام، فقد رد على من ذهب إلى أن اسم زوجة أيوب عليه السلام رحمة، فقال عند قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا، وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]: "وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة"^(٣)، وقد يظن بعض الناس أن لا ضرورة للوقوف على مثل هذه الآراء وفي ظني أن ما صنعه الحافظ ضروري كي يسد الطريق على كل من يظن ظناً في القرآن من غير دليل معتبر^(٤).

(١) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ٩٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٢٨٨.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٥، ص ٣٦٢.

(٤) ومن ذلك ما سمعته من بعضهم أنه كان يقول: إن اسم أخي يوسف عليه السلام نكتل أخذاً من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِهَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَبَدُ فَأَرْسَلْنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، وهذا من ذاك.

المطلب الرابع

الدلالة اللغوية والبيانية

المقصود بالدلالة اللغوية البيانية ما يفيد السياق في الكشف عن بعض وجوه البلاغة واللغة في القرآن، وقد وقف الحافظ ابن كثير عند الكثير من تلك الدلالات في تفسيره، وسأعرض لبعض هذه الدلالات في مجموعة من المسائل، وهي:

أولاً: تقدير المحذوف

الحذف لغةً: قطع الشيء من الطرف^(١)، واصطلاحاً: إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل^(٢)، ولما كان الأمر كذلك كان لا بد من معرفة الدليل الذي دل على المحذوف وهذا الدليل إما أن يكون متصلاً كالـدليل السياقي، أو منفصلاً كالـدليل العقلي أو نقل السنة أو ما تحتمه العربية، وهذه أمثلة تبين المقصود.

فعند قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَا تَقْرَبُونَ أَلْفَوْحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، اعتمد ابن كثير على لحاق السياق في تقدير المحذوف وفي ذلك يقول: "وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكَ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾" (١٥١) فجعل الجملة التذييلية للآية بياناً للمحذوف المقدر، فدليل الحذف السياق، وهو ما بينه اللحاق. وعند قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ آمِ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٢٢].

(١) صاحب ابن عباد، أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المحيط في اللغة، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ج ٣ ص ٦٩.

(٢) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩١ هـ، ج ٣ ص ١٠٢.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٣ ص ٣٦٠.

يقول ابن كثير: "يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١) أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية.. أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه^(٢)، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾^(٣) أي: عبدها معه من أصنام وأنداد وأوثان"^(٤)، فجواب ﴿مَنْ﴾ محذوف لدلالة السياق عليه، وقد قدره ابن كثير: كالأصنام، ودليل الحذف قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

وقد رسم ابن كثير رحمه الله تعالى منهجاً واضحاً في تقدير المحذوف من السياق بالسباق واللاحق فعند قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾^(٥) اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ^(٦) ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾^(٧) اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ^(٨) ﴿النمل: ٥٩-٦٠﴾ قال: "وقوله هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أَمَّنْ يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيلٌ أَأَنَاءَ الْبَيْتِ سَاجِدًا وَفَإِذَا يَمْحُذِرُ الْآخِرَةَ وَبَرَّجُوا رَحْمَةً رَبِّهِ﴾^(٩) [الزمر: ٩] أي: أَمَّنْ هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١٠) [الزمر: ٩] ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾^(١١) قَوْلٌ لِلْقَنَسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(١٢) [الزمر: ٣٣] وقُلْ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١٣) [الرعد: ٣٣] أي: أَمَّنْ هو شهيد على أفعال الخلق

(١) يقول أبو حيان: "﴿مَنْ﴾ مو صولة، صلتها ما بعدها، وهي مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: كمن يئس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع.. ويل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾... ويحسن حذف هذا الخبر كون المبتدأ يكون مقابله الخبر المحذوف، يَنْظُرُ، أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وأخرون، دار الكتب العلمية، ط ١، لبنان - بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ج ٣ ص ٣٨٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٤٦٣.

حركاتهم وسكناتهم. يعلم الغيب جليله وحقيقه، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ﴾ [الرعد: ٢٣] وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها^(١)، فهذه الآيات قد قدر لها ابن كثير جواب الشرط المحذوف المقدر من السياق، وهذا التقدير متناسب مع معنى الآيات الواردة وبه تبرز دقة التقدير وجلاله.

وعند قوله تعالى: ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦] قال ابن كثير: أي: غير صراط المغضوب عليهم، اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ [الفاتحة: ٦-٧] فلما تقدم في الآية السابقة ذكر الصراط، كان تقديره سلساً على اللسان، لأن الذي يقابل صراط الذين أنعم الله عليهم، هو صراط المغضوب عليهم، وصراط الضالين.

وكذلك صنع في تقدير المحذوف من خلال الاستدلال السياقي المفهوم من ضمن المعاني المتتابعة، يقول الحافظ: "وقوله: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾^(٣) جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً^(٤) عُرُباً أَتْرَاباً^(٥) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ^(٦) [الواقعة: ٣٥-٣٨] جرى الضمير على غير منكور، لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاغن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن^(٣)، فهنا قدر المحذوف من خلال دلالة معاني السياق الواردة فيه، دون أن يذكر لفظ النساء.

ثانياً: دلالة الترتيب

يرى ابن كثير أن الترتيب في كتاب الله تعالى مقصود لذاته، إذا توافق مع السياق فعند قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١]، قال: "وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق، وهذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها" ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦ ص ٢٠٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ١٤١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٧ ص ٥٣.

يَعْقُوبُ ﴿١﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل^(١). فالسياق هاهنا رتب البشارة على الضحك وليس العكس. ودعوى التقديم والتأخير تحتاج إلى دليل سياقي أو نقلي. وبانعدام الدليل تدحض الدعوى.

ولكن الترتيب المعهود إذا لم يتوافق مع السياق، فإن السياق هو المقدم، وفي ذلك يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ، لَهُ، زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] "أي: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت، وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان في لسانها طول فأصلحها الله، وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله وهكذا قال محمد بن كعب، والسدي، والأظهر من السياق الأول^(٢). فلم يرتض ابن كثير القول الثاني، لأنه لا يتوافق مع السياق، مع أن الترتيب يقتضي ترتيب إصلاح الزوج للإنجاب ثم هبة الولد، والله قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ، لَهُ، زَوْجَهُ﴾. فجعل الهبة قبل الإصلاح، ولا إشكال في ذلك مادام يتوافق مع السياق، إذن نستنتج من هذا أن ابن كثير رحمه الله جعل الدلالة السياقية هي المقدمة على دلالة الترتيب المعهود، وأن الأخذ بدلالة الترتيب لا يتم إلا إذا كان لها دليل سياقي.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٣٢٤، هذا، وفائدة ذكر الضحك زوال الخوف الذي كان يجول في فسهاء عند امتناعهم عن تناول الطعمر. فلما ضحكت وهي قائمة -لعلها على الخدمة أو ما شابه ذلك - جاء التبشير مناسباً بعد الضحك. فضموا لضحكها سروراً، وقد نسب محمد رشيد رضا القول بالقديم والتأخير لا فراء حيث قال: "وزعم الفراء أن فيه قديماً وتأخيراً، ولا مقتضى ولا مسوغ له". يُنظر: محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ١٣ ص ١٠٧، والحق أن الفراء لم يقل بذلك، وغاية ما قاله: "فضحكت فيشرت بعد الضحك، وإنما ضحكت سروراً بالأمن، فأتبعوها بشرى بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وقد يقول بعض المفسرين: هذا قمر ومؤخر، والمعنى فيه: فيشرنها بإسحاق فضحكت بعد البشارة، وهوما قديمته له الكلام، والله أعلم بصوابه، وأما قوله: ﴿فَضَحِكْتَ﴾: حاضت، فلم سمعه من ثقة، وهو يشير إلى كلام وهب بن منبه الذي ذهب إلى بطلانه الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، يُنظر: الفراء، أبو زكريا يحيى بن زباد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار، دار السور، ج ٢ ص ٢٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٣٧٠.

ثالثاً: توجيه المتشابه اللفظي^(١)

يعتمد ابن كثير الدلالة السياقية في توجيه المتشابه اللفظي. فعند قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] قال: "وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق. ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]. فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤]. وذلك لأنهم استهزأوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصْلُونَا أَنْ نَمُرَّكَ أَنْ تَمُرَّكَ مَا يَبْغُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء فلنسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم. فقال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] على وجه التعنت والعناد فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه^(٢). ففي هذا المثال يتبين لنا كيف وجه ابن كثير رحمه الله المتشابه اللفظي في هذه الآيات، وأنه لما كانوا مرجفين بنبي الله في لية الأعراف ناسب أن يذكر الإرجاف بهم. وأن استهزاءهم بهود عليه السلام ناسبه صيحة تبكتهم، وأن عنادهم وتعنتهم جلب لهم عذاب يوم الظلة، فكانت كل عقوبة نزلت عليهم مناسبة لما صدر عنهم، وهذا ما بينه الحافظ رحمه الله تعالى من خلال السياق.

رابعاً: معاني الحروف

وقد كان لابن كثير نظرات ثاقبة في معاني الحروف، مما يكشف الغطاء عن حديقة غناء من حقائق علم الحافظ رحمه الله تعالى. يقول ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَالْفُطَةُ ۖ ءَالٌ فَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمُ عَذَابٌ وَحَرُثٌ إِنْ فَرَعُونَ وَهَمَنَ وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ﴾ [القصاص: ٨]: "قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام

(١) عرف الزركشي علم المتشابه اللفظي بقوله: "هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة".

الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١ ص ١١٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦ ص ١٦١.

العاقبة لا لام التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحرزاً، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخُودَهُمَا كَانُوا خَطِيئِينَ﴾

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق؛ وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحرز، قال الله تعالى: ﴿وَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَخُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]. وقتلتم أنتم؛ لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً ونصيراً والله يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَزًا﴾^(١).

والقول الذي ذهب إلى ضده الحافظ هو رأي أغلب النحويين، قال أبو جعفر النحس: "وقوله جل وعز: ﴿فَالْفَقْتُهُ، أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَزًا﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤول إلى هذا قيل: التقطوه له، كما يقال لمن كسب ماله فأوبقه؛ إنما كسبه ليهلكه، وهذا مذهب الخليل وسيبويه ومن يرضى قوله من النحويين وهو كثير في كلام العرب"^(٢)، وقد تعارف المعربون على تسميتها لام العاقبة، أي: كان عاقبة الالتقاط أن كان لهم عدواً وحرزاً، ولم يلتقطوه لذلك بل التقطوه كما قالت امرأة فرعون: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَكًا﴾ [القصص: ٩] والوجه الذي نهى إليه ابن كثير رحمه الله تعالى أدق مسلماً في ظني من كلام جمهرة النحويين؛ لأنه قد تستد إلى الظاهر من معنى اللام أولاً، ولأن السياق يؤكد هذا المعنى ويثبت ثانياً، يقول الشنقيطي: "لما كان كونه عدواً لهم وحرزاً يترتب على التقاطهم له؛ كترتب المعلول على علته الغائية؛ عبر فيه باللام الدالة على ترتيب المعلول على العلة، وهذا أسلوب عربي، فلا حاجة إلى ما يطيل به البيانون في مثل هذا المبحث"^(٣)، وبذلك يكون الحافظ رحمه الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦ ص ٢٢٢.

(٢) النحس، أ. بوجه فراح مد بن محمد بن إسماعيل، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط ١، ٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج ٥ ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٢ ص ٤٦٢.

قد وقف على دلالة السياق غير آبه بما ذهب إليه البيانيون، ما دامت الدلالة السياقية هي سيدة الموقف، وما دام المعنى الذي أثمرته هو ما تستريح له النفس وهو ما يوافق القرآن خامساً: نفي شبهة التكرار^(١)

لا يرى ابن كثير وجوداً للتكرار في كتاب الله تعالى، ويعتمد في تفنيد قول من يقول بالتكرار على السياق، فعند قوله تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هَذَا يَفْلاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٢٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٢٩)﴾ [البقرة: ٢٨-٢٩] قال ابن كثير: "وذكر هذا الإيهام الثاني لما يتعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول^(٣)، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما تقول: قم قم، وقال آخرون: بل الإيهام الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه"^(٤)، ففي هذا المثال بين ابن كثير رحمه الله أن الإيهام الثاني مغاير للأول لما يتعلق به من معنى مختلف عما يتعلق به الإيهام الأول، وفيه نفي لشبهة التكرار التي قال بها بعض المفسرين.

وعند قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَاقْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] يقول ابن كثير: "الفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام، لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم"^(٥)، ففسر الفظ بالغليظ أولاً ثم بين أن معنى الغليظ غليظ الكلام، دفعاً لشبهة تكرار معاني الكلام، فالفظ من حيث اللفظ

(١) التكرار المر فوض في القرآن هو تكرار المعاني لغير داع، فهو أمرٌ يجعل عنه النكر الحكيم، أما تكرار الألفاظ المرتبطة بمعاني غير متكررة، فظاهر الأمر أنه داخل تحت مسمى التكرار، وفي الحقيقة الأمر على خلاف ذلك.

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هَذَا يَفْلاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٢٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٢٩)﴾ [البقرة: ٢٨-٢٩]، فالمعنى لو ارد في هذه الآية وهو الإخبار بوجود العداوة بين الناس، والاستقرار في الأرض إلى زمن محدد، مغاير للمعنى لو ارد في الآية التي تليها، وهو الأمر باتباع الهدى ترغيباً، والتخويف بالنار ترهيباً، فالآية الأولى ذكر فيها ما لم يذكر في الثانية، وهذا ما يند في شبهة التكرار، وهو ما أراده الحافظ رحمه الله تعالى بقوله: "لما يتعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول".

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٢٤١.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢ ص ١٤٨.

مختلف عن الغليظ، لكن لو فسر اللفظ بأنه الغليظ دون بيان وجه الغلظة وأنه غلظة اللسان دون القلب لوقع في التكرار، فلأجل ذلك قيد الحافظ الغليظ بما قيد.

سادساً: التضمن^(١)

ومثال الاستدلال بالسياق على التضمن ما جاء في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]. حيث يقول ابن كثير: "فيه تضمن دل عليه حرف الباء، كأنه مقدر: يستعجل سائل بعذاب واقع. كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧] أي: وعذابه واقع لا محالة"^(٢). ثم قال رحمه الله بعد أن أورد مجموعة من الأقوال: "والصحيح الأول لدلالة السياق عليه"^(٣). أي: القول بالتضمن، ودلالة السياق على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢] أفد قرب وقوع العذاب. ولما كان العذاب واقعاً لا محالة كان السؤال عنه من باب الاستعجال لا من باب الاستفهام، وهذا ما عناه الحافظ بقوله: "كأنه مقدر: يستعجل سائل بعذاب واقع". ونوع التضمن في الآية تضمن فعل معنى فعل آخر، فبدل أن يقول: استعجل سائل بالسؤال عن عذاب واقع قال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، والذي دلنا على معنى الاستعجال أمران، الأول: حرف الباء الذي لا يتعدى به السؤال، والثاني: السياق.

وعند قوله تعالى: ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ [ن: ٦]. يقول: "ومعنى المفتون ظاهر أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ لتدل على تضمن الفعل في قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَيُبْصِرْهُ﴾ [ن: ٥] وتقديره: فستعلم

(١) التضمن هو إطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف، فأما في الأسماء، فهو أن تضمن اسماً معنى اسم، لا فائدة معنى الاسمين جميعاً، كقوله تعالى: [حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ]. ضمن حقيق معنى حريص، ليفيد أنه محقق، بقول الحق وحريص عليه، وأما الأفعال فإن تضمن فعلاً معنى فعل آخر، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعدباً بحرف آخر، ليس من عادته التعدي به، فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصح تعديه به. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ٢ ص ٢٣٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢٢٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢٢٠.

ويعلمون، أو: فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون. والله أعلم^(١)، وفيه بيان لمعنى التضمن من السياق، حيث ضمن فعل الإبصار معنى العلم والإخبار.

سابعاً: بيان سبب العطف

ونجد ابن كثير رحمه الله يقف مع الدلالة السياقية لجعلها مبنية لسبب العطف فعند قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، يجيب عن سبب عطف جبريل وميكال على الملائكة والرسول فيقول: "وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة ثم عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفيرين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً^(٢)، فهذا البيان يدل على قيمة السياق في الإجابة عن سبب العطف، وهو يعكس رؤية ابن كثير لأسلوب من أساليب العربية في رسالة الحرف القرآني.

وعند قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣]، يناقش الآراء التي تتحدث عن معنى ﴿وَحَنَانًا﴾، ثم يقول مقررأ: "والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ [مريم: ١٢]، أي: وأتيناه الحكم وحنناً ﴿زَكَاةً﴾ أي: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحتت المرأة على زوجها^(٣)، فهو يقرر أن عطف ﴿وَحَنَانًا﴾ على ﴿الْحُكْمَ﴾ يقتضي الانسجام في المعنى، فإذا آتاه الله تعالى الحكم صبيحاً، فهو كذلك جعله ذا حنان ورحمة، وهذا يدل على الانسجام السياقي وأثره في فهم المعطوفات.

ثامناً: دلالة ترجيحية في عودة الضمائر

معرفة عودة الضمائر يحتاج إلى دليل يستند إليه القائل، فإما أن يكون الدليل اتصالياً أو انفصالياً، والدليل الاتصالي هو الدليل السياقي، وهو المعنى المتبادر إلى ذهن بحيث إن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ١٩٠.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٣٤٢.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢١٧.

سابقه معنى آخر سبقه، فعند قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. يقول ابن كثير: "ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ على النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، والله أعلم"^(١).

المطلب الخامس

الاستدلال السياقي

لا يتوقف الاستدلال السياقي عند ابن كثير في قضايا الترجيح فحسب بل يتعداه إلى أوسع من ذلك، فهو يستعين بالدلالة السياقية في كثير من المسائل، وهذه بعض الأمثلة التي تبين المقصود:

أولاً: صحة القول في نفسه لا تعني صحته سياقياً

ومن دقائق نظرة ابن كثير السياقية، أنه ينبه على صحة القول في نفسه، ثم يزيد التنبيه تنبيهاً بأنه غير مقصود بهذا السياق بالذات، وهي نظرة تنبئك بقيمة الدلالة السياقية، وهي تبين منهجاً في التعامل مع الأقوال التفسيرية، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يقول ابن كثير: "وقال مجاهد بن جبر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن، وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هاهنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله هاهنا، وإنما الذي قاله نكروه في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَّهِيًّا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]^(٢).

ثانياً: دلالة استثنائية في تقوية كلام المفسرين

يميل ابن كثير أحياناً إلى بيان المعنى الإجمالي العام للآية من خلال دلالة السياق وتكون حينئذ دلالة استثنائية لتقوية كلام المفسرين، فعند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْعُوا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤ ص ٥٢٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢٢٩-٢٣٠.

هَذِهِ الْقَرْيَةُ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩] يقول ابن كثير: "وحاصل
ما ذكره المفسرون، وما دل عليه السياق، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول
والفعل، فأمرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سَجْدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم
رافعي رؤوسهم، وأمرُوا أَنْ يَقُولُوا: حِطَّة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزأوا فقالوا:
حنطة في شعرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم
بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته ولهذا قال ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾".^(١) ونلاحظ كيف أنه اكفى بالمعنى الإجمالي الآية
الذي يبينه ويوضحه السياق، دون الوقوف على التفاصيل.

ثالثاً: دلالة السياق الشاملة

يرى ابن كثير أن الدلالة السياقية تكون شاملة لمجموعة من الأقوال المنفردة،
وحينئذ يكون المقصود جميع الأقوال لا بعضها، فعند قوله تعالى ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبراهيمَ رِيَّةً
بِكَلِمَةٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾
[البقرة: ١٢٤] ذكر ابن كثير مجموعة من الروايات التي تفسر المقصود بالكلمات، ثم
نقل رأي ابن جرير فقال: "قال أبو جعفر ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد
بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه
المراد على التعيين إلا بحدوث أو إجماع، قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد، ولا
بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له... ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذي قاله
مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان منهجاً
فإن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهْدًا إِلَىٰ إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهَّرَا بَيْتِي
لِلطَّائِفِينَ وَاللَّعَافِينَ الْأَرْكَعَ السُّجُودَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وسائر الآيات التي هي نظير ذلك كإتيان عن
الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم^(٢).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص ٢٧٧.

(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢ ص ١٧.

قلت: والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر، أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله، لأن السياق يعطي غير ما قالوه والله أعلم^{١١}، فالدلالة السياقية عند ابن كثير تكون شاملة لجميع الأقوال، غير مقتصرة على بعضها دون بعضها الآخر.

رابعاً: دلالة سياق السورة

يعطي ابن كثير سياق السورة دلالة مستقلة لها أثرها الواضح في التفسير، بل إنه يرد أقوالاً لا يرتضيها، فعند قوله تعالى ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَدْكُ بَصِيرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) وَالْفَبِّكَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بِئْرَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٣) [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

يقول ابن كثير: "قال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله"^(٢).

فالمقصود بالسياق هاهنا سياق السورة، فسورة الأنفال شملت الحديث عن غزوة بدر بجميع تفاصيلها الضرورية، وبالتالي الأولى أن يكون المقصود يوم بدر هذاماً نهج إليه ابن كثير رحمه الله من خلال الاستدلال السياقي، وفيه مناقشة الروايات المأثورة على ضوء السياق.

خامساً: السياق دليل والآيات استشهاد

تفسير الآية من خلال السياق هو جزء من تفسير القرآن بالقرآن وقد تبناه كثير رحمہ اللہ لهذا الملحظ الدقيق في منهجه العملي، فإذا رجح بالسياق استأنس بآيات القرآن على المعنى الذي رجحه دون استدلال، وهذا لا يعني أبداً أنه لا يستدل بالآيات لكن بحضور دلالة السياق الذاتية، تصبح الآيات الأخرى من قبيل الاستشهاد لا الترجيح، وهي تصلح أن تكون قاعدة من قواعد علم الترجيح القرآني؛ فالسياق دليل والآيات تستشهد ومن ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ لِيُنْزِلَ عَلَيْكُمْ كُتُبًا كَذِبًا﴾

(۱) ابن کثیر، تفسیر القرآن العظیم، ج ۱۰، ص ۴۱۰.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٨٤.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن كثير بعد أن نقل أقوال طائفة من المفسرين في معنى دعه النبي صلى الله عليه وسلم وأن المقصود به التشريف والتبجيل: "وهو الظاهر من السياق، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤَلُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥) [الحجرات: ٤-٥]. فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته (٨١).

فقول ابن كثير: "وهو الظاهر من السياق" يدل على أنه المقصود دلالة سياقية وقوله: "كما قال تعالى" يدل على أنه استشهداد لا ترجيح.

ومما يزيد القلب طمأنينة لهذه القاعدة التي اتبعها ابن كثير رحمه الله تعالى ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ نَافِلُونَ﴾ (١٨) [قصص: ٤٨] يقول ابن كثير: "والظاهر على قراءة: ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون: التوراة والقرآن لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتُبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩) وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩١-٩٢] وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠) [الأنعام: ١٥٥] (٨١).

فقول ابن كثير: "لأنه قال بعده" هو الدليل على أن المقصود بسحرين التوراة والقرآن، وقوله: "وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن" استشهداد على ما استدل به

(٨١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦ ص ٨٨.

(٨٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٦ ص ٢٤٢.

سياقياً، وهذا المنهج قد طبقه في التفسير كله، فعندما يقول كما قال تعالى ويشير إلى آيات آخر فإن المقصود الاستشهاد بتلك الآيات من جهة، وبيان أن هذا المعنى له ما يؤكد في سياق آخر من جهة ثانية.

سادساً: ذكر احتمالية الرأي الآخر

وليس بالضرورة أن يرجح ابن كثير رأياً على آخر، وإنما قد يكتفي بذكر احتماليته دون ترجيح، ودليل هذه الاحتمالية دلالة السياق، يقول ابن كثير: "وقال قتادة والسدي: ﴿كَأَلَوْهِنَّ تَذَكَّرْنَ﴾ [المدثر: ٤٥] يعني: القرآن ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [المدثر: ٥٥] أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره، ويحتمل عود الضمير على الوحي، لدلالة الكلام عليه"^(١).

وقال في موطن آخر: "والأحسن أن يجعل "كالوا" و"وزنوا" متعدياً، ويكون هم في محل نصب، ومنهم من يجعلها ضميراً مؤكداً للمستتر في قوله: "كالوا" و"وزنوا"، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما مامتا قارب"^(٢)، أي: أن يجعل هم في ﴿كَأَلَوْهِنَّ﴾ و﴿وَزَنُوهُنَّ﴾ ضميراً للضمير المستتر الذي هو في محل نصب مفعول به لفعل كال ووزن، وبين رحمه الله أن هذا الرأي والذي سبقه - وهو الأشهر - في جعل ﴿هِنَّ﴾ من ﴿كَأَلَوْهِنَّ﴾ و﴿وَزَنُوهُنَّ﴾ في محل نصب مفعول به، قريب من الصواب، لأن الكلام يدل عليه.

وهذا البيان في احتمالية السياق لرأين مما قد يدخل في اختلاف التنوع والتعدد ولا يعني بالضرورة أبداً أن يكون بين الرأيين اختلاف أو تناقض ولأجل ذلك جعل الرأي الآخر الذي لا يذهب إليه محتملاً، ووجه الاحتمال كامن في دلالة الكلام.

* * *

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢٢١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨ ص ٢٤٦.

الخاتمة

نحمده سبحانه على جميل نعمائه، وعظيم صفاته، على إتمام هذا البحث، ونسجل أهم النتائج التي خلص إليها الباحث وهي الآتي:

أولاً: استطعنا أن نحدد مفهوم السياق عند ابن كثير رحمه الله، وهو ما تتابعت فيه المعاني عبر الألفاظ القرآنية، من غير فصل أو قطع، لتحقيق غاية موضوعية.

ثانياً: كان للسياق مجموعة من الدلالات، وهي: الدلالة الترجيحية المباشرة، والدلالة السياقية الترجيحية الضمنية، والدلالة السياقية في رد أو هام الأفهام، والدلالة البيانية اللغوية، والاستدلال السياقي.

ثالثاً: للدلالة السياقية دور في ترجيح المعاني بعضها على بعضها الآخر، وهذا الترجيح إما أن يكون مباشراً، أو ضمناً.

رابعاً: اعتمد الترجيح على السياق واللاحق معاً، والسبق وحده، واللاحق وحده.

خامساً: كان لابن كثير بصماته الواضحة في إنصاف المخالف، وبيان وجهة نظره من المعاني السياقية، ولم ينهج نهج القطع والبت في الآراء المحتملة.

سادساً: بيان رد ابن كثير بعض الآراء التي قال بها أصحابها معتمدين في ذلك السياق، وبيان وهم أولئك الذين ظنوا أن السياق لصالحهم.

سابعاً: بيان دور الدلالة السياقية عند الحافظ في الكشف عن المعاني البيانية واللغوية.

ثامناً: بيان الدور السياقي في المسائل المنهجية التي يجب أن تكون حاضرة عند النظر في الآيات القرآنية، في تفسير القرآن العظيم.

نسأله سبحانه وتعالى في نهاية البحث أن يرزقنا حسن التأمل، وعظيم التعلم، لما يحبه ويرضاه سبحانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

قائمة المصادر والمراجع:

- ١ - الأزهرى، أبو يوم منصور محمد بن أحمد، تهنيط اللغة، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠١م.
- ٢ - الإسنوى، جمال الدين عبد الرحيم الإسنوى، نهاية السؤل شرح من هاج الو صول، دار الك تب العلمىة، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٣ - البخارى، محمد بن إسماعيل، صحيح البخارى، الرياض - المملكة العربىة السعودىة، بىة الأف كار الدولىة للشعر والتوزىع، ط١، ١٩٨٥هـ - ١٩٩٨م.
- ٤ - البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، مسند البزار، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زىن الله، مؤسسهة علوم القرآن، ومكبة العلوم والحكم، ١٤٠٩هـ، لبنان - بيروت.
- ٥ - ابن جزى، محمد بن أحمد الكلبي، السهل لعلوم التنزىل، دار الفكر، بيروت - لبنان.
- ٦ - ابن الجعد، أبو الول حسن ع لى بن الجعد بن عبد الجوهري البغدادي، مسند ابن الجعد، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مؤسسهة نادر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٧ - الجوهري، إسماعيل بن حمد، تاج اللغة و صحاح العربىة، دار العلم للملاىين، بيروت - لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.
- ٨ - الخطيب التبرىزى، محمد بن عبد الله، مشكاة المصابيح، المكتب الإسلامى، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألبانى.
- ٩ - أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسى، البحر المحىط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمىة، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ١٠ - الزركشى، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان فى علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩١هـ.
- ١١ - الزمخشرى، محمود بن عمر، أسلس البلاغة، تحقيق: عبد الرحىم محمود، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١٢ - السعدى، عبد الرحمن بن ناصر، تسىر الكرىما لرحمن فى تفسىر كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معل اللوىحق، مؤسسهة الرساله، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٣ - أبو لسعود: محمد بن محمد العمادى، إرشاد العقل السلىم إلى مزاى القرآن الكرىم، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان.

- ١٤ - الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرف للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.
- ١٥ - الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ١٦ - صاحب ابن عباد، أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عبد بسطاط قاني، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط١، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ١٧ - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الأملي، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٨ - ابن عسك، محمد بن محمد بن محمد الطاهر بن عسك التونسي، التحرير والتأخير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٩ - ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٢٠ - ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٩٨م.
- ٢١ - الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار، دار السور، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
- ٢٢ - القزويني، محمد بن سعد الدين بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
- ٢٣ - ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان.
- ٢٤ - ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٢٥ - الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى، الاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: د. محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ١٤١٧هـ، ط١.
- ٢٦ - ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت - لبنان.
- ٢٧ - محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- ٢٨ - محمود، المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، دار وائل للنشر، عمان - الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.
- ٢٩ - مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، الريض - المملكة العربية السعودية، بيت الألفكار الدولية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٤هـ/١٩٩٨م.
- ٣٠ - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر، (د.ط.)، (د.ت.).
- ٣١ - المجلس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٣٢ - النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ٣٣ - الهيتمي، الحافظ، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنيع الفوائد، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

* * *